وحدة الإسلام وأثرها في الصالح العام*

تقديم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان، وبعد:

فإن الإسلام الحنيف في منهجه العام والأصيل والمتكامل، من غير بَتْر شيء منه أو تجزئة فيه، هو الأساس الجامع الذي يلتقي عليه المسلمون أولاً فيما بينهم، ويعبرون عنه في لقائهم مع الآخرين على أنه الدين الخالد والجامع لتصورات البشرية، وضرورة تفعيل أصوله ومنهجه العام في الحياة، وتوحيد الرؤى والاعتقادات، من غير أي تشنج أو تعصب أو حقد أو إساءة ظن بالآخرين، فحسن الظن من الإيمان.

ويكون بيان الإسلام بالمعنى العام الذي اتفقت عليه جميع الرسالات، وكذا بالمعنى الخاص الذي عرف به المسلمون، على مدى القرون السابقة، منذ أشرق نور الوحي الإلهي في القرآن المجيد في بطحاء مكة والمدينة،

---

* الملتقى الدولي حول «العلماء المسلمون في الغرب - جسور التواصل مع الأزهر»، في القاهرة ٣ - ٥ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٩م.

هو الرباط الوثيق الذي يعصم البشرية من الزيغ والانحراف ومعاداة الدين الحق، ويجتذب قلوب الأصفياء وعقلاء العالم إلى الانضواء تحت مظلة الهدي الإلهي السرمدي والمتجدد، لإنقاذ الفرد والجماعة والأمم من متاهات التخبط في دياجير الظلام، والبعد عن هداية الله تعالى.

فإذا ما برزت ظاهرة (وحدة الإسلام) دون تجزئة ولا تشويه، وأدرك العالم بحسّه الدافئ وإضاءة العقل النيِّر والبعد عن الأهواء والمصالح الذاتية سلامةَ المنطلقات الإلهية، وجدوى إشعاعات البصيرة الإيمانية والفطرة السليمة في تصحيح مسيرة البشرية، وحل مشكلاتها النظرية والعملية، تحقَّق التقارب، وساد الوئام والتفاهم، واقترب العالم من تحقيق (وحدة الإنسانية) في ظل (وحدة التوجيه الإلهي).

وأنماط هذه الوحدات الثلاث تتبلور في محورين هما:

المحور الأول: تكثيف جهود الدعاة والمخلصين من العلماء في تقرير حقائق الوحدة الشاملة.

المحور الثاني: بيان منهج الإسلام الناصع في احتضان القيم العليا لجمع البشرية على صعيد واحد.

وتلازم هذين الرافدين يؤدي في نهاية الأمر إلى الظفر بإنعاش الآمال السعيدة والمشرقة في دنيا الواقع وتصحيح مسالكه المتنوعة، وتحقيق التقارب والتعاون المطلوبين في دنيا الواقع.

وكيفية النجاح في هذه المسيرة تكون ببيان الأصول الآتية:

١- منهج الإسلام في الاعتماد على معطيات الجسور المشتركة بين الأديان في أصولها وواقعها.

٢- ظاهرة الإسلام الراسخة في التزام مفاهيم أو مقتضيات القيم الإنسانية العليا.

٣- الانطلاق من مفهوم الوسطية والاعتدال ومدى جدواه.

٤- الإقرار بواقع التعدد العقلي والعقدي والروحي والمذهبي، وضرورة احترام الآخر.

٥- تشييد مركز الدعوة والدعاة أو تفعيل المركز الدعوي الدائم في الأزهر للتواصل مع الدعاة وعلماء الإسلام في العالم لضبط طرائق الدعوة وتحديد غاياتها.

فإذا ما استطعنا تطبيق هذه المحاور أو الأصول في واقع الحياة في العالم، نكون قد اقتربنا من بر الأمان، وشاطئ السلام، وإسعاد البشرية، ووحدة الأسرة الإنسانية، دون نزاعات، ولا أطماع، ولا استكبار أو استعلاء من فئة عنصرية على غيرها من سكان كوكبنا الجميل الممتع والموحد.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

منهج الإسلام في الاعتماد على معطيات الجسور المشتركة بين الأديان

إن من أهم مقوّمات الإسلام في الانفتاح على الآخرين وتحقيق آفاق التفاهم والتعاون والتقارب هو الاعتماد على المعطيات المشتركة بين الأديان في أصولها وواقعها، فذلك يُعدّ همزة وصل أو مدخلاً لتقديم رسالة الإسلام إلى الآخرين على نحو مألوف يتقبله الآخرون، ويكون سبباً للقناعة بأن عقيدة الإسلام ما هي إلا مكمِّلة لبناء الأديان الأخرى المتقدمة عليه، والمصححة لما هو خطأ أو غلط، لقول الله تعالى في القرآن المجيد: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٥/٤٨].

وهذه الجسور المشتركة الكثيرة والمحقِّقة للوحدة والإخاء والتفاهم، منها:

١- **الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته** من حيث المبدأ، وإن طرأ على هذا المفهوم شيء من اللبس والتشويه لدى بعض أهل الكتاب بالاعتقاد بألوهية غير الله، فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠].

وبالنقاش الهادئ يمكن تغيير هذا المفهوم بالاعتماد على حقائق الخَلْق والكون والإبداع والرزق، وذلك بدليل اشتمال جميع كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء في دعوتهم إلى الإسلام على آية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].

وذلك مفتاح الحوار وجذعه، وغايته، وطريق الإقناع فيه، والمؤدي إلى احترام (وحدة الإسلام ومعرفة آثارها في الوسط العام) لدى المسلمين وغيرهم لتبديد أفكار وتهم التجزئة والتشويه، وأن الإسلام قديمه وجديده سواء، وأنه دين إلهي راسخ، وليس مجرد أفكار إصلاحية من زعيم[(١)].

٢- **الإقرار بالنبوات**، حيث أرسل الله تعالى الرسل، وكلَّفهم ببيان مهمتهم الكبرى للأمم والشعوب بالوحي الإلهي، حتى وإن وجد البتر أو النقص بعدم الإقرار برسالة محمد بن عبد الله ﷺ النبي العربي الهاشمي، وأنه خاتم النبيين والمرسلين، وهذا أمر سهل، حيث إن مصدر الرسالات هو الله جل جلاله، من غير تفرقة بين قوم وقوم، وأمة وأخرى، وعرب وغير عرب، قال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ

(١) بتصرف انظر الأزهر والفكر المعاصر، الدكتور محمد البهي، ص ١٣ وما بعدها.

ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٥]، وقال أيضاً: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤].

وترميم هذا النقص الإيماني سهل، ما دمنا ندرك أن المصدر واحد، والهدف واحد، وحاجة الأجيال للنداء الإلهي بالصلاح والإصلاح واحدة.

٣- **الإيمان باليوم الآخر**: يلتقي مع المسلمين أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالإيمان بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، وجنة ونار، وهذا ييسِّر مبدأ التلاقي على المبدأ والمعاد، لكن هذا المفهوم يكتنفه اللَّبْس والغلط والأمل الخادع، حيث قال الله في كتابه الكريم مخبراً عن ظاهرة التشويه هذه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٥/ ١٨]، وأسوأ من هذه الفكرة ضمان النجاة من الحساب والعقاب في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٠].

٤- **الكليات الخمس** أو الأصول الخمسة الكلية الضرورية التي لم تحلّ أو تبح في أي ديانة، وهي مقاصد الشرائع كلها، وهي الحفاظ على الدين، والنفس، والعقل، والنسب أو العرض، والمال.

فهذه أصول التحكيم الدالة على (وحدة الإسلام بالمعنى العام) بين جميع الرسالات الإلهية والتي تعني الخضوع والانقياد المطلق لأوامر الله عز وجل، والإسلام الذي صار علماً على المسلمين منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وهو لبّ الرسالات الإلهية وخاتمتها، والمعبِّر عنها بنحو موضوعي شامل وكامل وحاسم وخالد إلى يوم القيامة، وجامع لمفهوم الإسلام بالمعنى العام.

وهذا يمكّننا من الحوار البنّاء مع أتباع الأديان الأخرى، ما دامت هذه الأصول معترفاً بها، فهي المرجع، والمبنى، والغاية، بل الوسيلة الصحيحة الهادفة والعامرة بكل خير، والمحققة لكل تقدم حضاري إنساني كريم، إذا حُسنت النوايا، وصدقت العزائم، وتوافرت الإرادة الفعالة للوصول إلى ما تحقق الثبات والاستقرار والرفعة والسمو، وإشاعة العدل والحرية والمساواة والسلام الذي ينبغي أن يعمل من أجله الأقوياء، لا الضعفاء الذين أصبحوا طعمة سائغة في بطون المستكبرين والطغاة، وعلى سبيل المثال:

إن قواعد القانون الدولي المعاصر لم تعد تنفع الضعفاء - كما صرح بعض كبار علماء القانون الدولي المعاصرين[1] - ويقتصر تطبيقها على الأقوى ولا سيما قواعد القانون الدولي الإنساني ووصايا ومبادئ الأديان، ويُحرم منها المستضعفون، كما نشاهد الآن في الحروب التي تشنّها أمريكة وحلفاؤها على أفغانستان والعراق والباكستان والسودان والصومال وأواسط البلقان، استكباراً في الأرض، واستغلالاً للنفوذ، وتحقيقاً لأطماع الشرهة في الاستيلاء على مصادر الطاقة، وممارسة لألوان المكر السيئ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، حيث بدأ العقاب الإلهي بالأعاصير العاتية والانكماش الاقتصادي في أمريكة، وانعكس ذلك على العالم كله.

إن استثمار هذه الأصول أو الكليات الخمس في تحقيق السلام العالمي واستقرار نظام المال والاجتماع يوصل إلى أفضل الغايات وأسمى المقاصد.

---

(١) وهو أ-د: محمد عزيز شكري عميد كلية الحقوق بدمشق، ورئيس قسم القانون الدولي، في مقال منشور في جريدة الخليج ١٦ آب/أغسطس ٢٠٠٨م.

٥- **أداء الصلاة والزكاة والصيام**: يمارس المسلمون وأهل الكتاب هذه العبادات، مع اختلاف في الهيئة والمضمون، فتكون سبباً للتلاقي والتفاهم، قال الله تعالى في جملة الأوامر الموجهة لبني إسرائيل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٣]، وقال سبحانه في شأن الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٣]. وكذلك إعطاء الصدقات للفقراء، والإحسان إلى الضعفاء الذي يمارسه أهل الأديان حباً في الخير، وتأثراً بالنزعة الإنسانية.

وأهم العبادات عند المسيحيين الصوم والصلاة، مع الاختلاف في تحديدها[1].

٦- **الاعتماد في المنطق والممارسة** على قاعدة الأخذ بمقتضيات الحكمة في الخطاب، وحوار أهل الرشد والوعي والعقل من أهل الغرب وغيرهم، وسماحة المسلمين في التعامل والحوار، وهو سبيل حيوي، وطريق وُدّي، ومنهج أخلاقي إنساني موضوعي في اللجوء إلى الحوار والحكمة، والاحتكام إلى مبادئ العقول، والنظريات المعرفية والعلمية. قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٦].

وقال عز وجل عن أوصاف عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٨] وفي آية أخرى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٦٣].

---

(١) مقارنة الأديان: د. أحمد شلبي - المسيحية: ص ١٩٧ - ١٩٨.

والحكمة هي الفلسفة الأصيلة عند الفلاسفة، وهي العلم النافع والعقل الراجح، ومقاصد الشريعة وأسرارها أو السنة النبوية في اصطلاح القرآن، قال تعالى واصفاً الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢].

وهبة الحكمة تشمل بعض العلماء من أي دين، قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٩].

وقال سبحانه عن آل إبراهيم عليه السلام: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٥٤]. وقال عن داوود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٠].

وقال الله عز وجل عن جميع الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٨١].

ووصف الله منهجه في توجيه آل البيت النبوي: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٤].

إن مفاتيح الخطاب الحكيم وأسلوب البيان والمنطق السوي ينبع من فاتحة الكلام في بداية الحوار، وفي ذلك تأثر واضح المعالم في اجتذاب أنظار الآخرين.

٧- الاحتكام في أصول الأحكام والأخلاق إلى **الوصايا العشر** المقررة لدى أتباع الديانات، جاء في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام: (احفظ الوصايا المتعلقة بالله وهي: أنا الرب إلهك، فلا يكن لك آلهة أخرى، لا تصنع لك تمثالاً، ولا صورة تسجد لها.. احفظ كذلك

الوصايا المتعلقة بالإنسان وهي: لا تسرق، لا تزنِ، لا تقتل، لا تشهد الزور، أكرم أباك وأمك، لا تشته ما عند قريبك)[١].

ونهت شريعة موسى عليه السلام عن القتل، وعن الزنا، وعن الحنث بالعهود والحلف بالله تعالى، ونهى المسيح عن الحلف على الإطلاق أياً كان نوعه[٢]، ونصَّت شريعة موسى عليه السلام على محبة الأحباء وبغض الأعداء، وأضاف المسيح عليه السلام قائلاً بمحبة الأحباء والأعداء جميعاً[٣] واكتفى الإسرائيليون بإتمام واجبات العدل لينال الإنسان النجاة، ولكن المسيح عليه السلام دعا إلى المزج بين العدل والمحبة[٤].

وعبر القرآن الكريم عن الوصايا العشر في ثلاث آيات هي: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١-١٥٣].

إن الاحتكام لهذه الوصايا يريح فرقاء الحوار والنقاش إذا كان غير المسلمين من العقلاء أو لديهم بقية من إيمان أو دين، أما السياسيون منهم فلا يؤمنون إلا بالمصلحة المادية المحضة، فهي الغالبة في كل المناقشات

(١) إنجيل متى ١٩: ١٨. إنجيل مرقص ١٠ - ١٩.
(٢) إنجيل متى ٥: ٢١، ٢٧، ٣٣.
(٣) إنجيل متى ٥: ٤٣، ٤٤.
(٤) إنجيل لوقا ١٦: ١٩ - ٢٠.

وألوان الحوار، وهم الذين يمارسون كثيراً من الأفعال الخارجة عن كل ألوان الهداية الإلهية، فيقتلون بغير حق النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم، ويشرِّدون الآمنين ويدمرون المنازل فوق رؤوس أصحابها، ويقصفون الأحياء والمنشآت من دون أي رحمة ولا شفقة، وبخاصة الإسرائيليون العنصريون في فلسطين وغيرها.

٨- **تشريع بعض العقوبات على الجرائم** الخطيرة أو العادية البسيطة، فهذا لا بد منه لتكون هذه العقوباتُ الجسدية كالسجن، والمعنوية كالتوبيخ والتشهير تدابيرَ زجريةً ومؤيداتٍ ضروريةً لحماية أحكام الشريعة الأصلية من حفظ حق الحياة والكرامة الإنسانية، وصون العقل والنفس من الضرر المحقَّق للجاني أو غيره، بل قد يُلجأ إليها بمثابة تدابير إصلاحية لمعتادي الإجرام، أو المراهقين الذين لم يبلغوا سن الرشد القانونية، لذا لم تخل جميع الأنظمة الدينية والوضعية من هذه العقوبات لتوفير احترام النظام، وسلامة المجتمع، علماً بأن الغالب على هذه العقوبات في الشريعة الإسلامية حماية حقوق المجتمع (المعبر عنها في هذه الشريعة بحقوق الله تعالى) دون إهدار للحقوق الفردية أو الخاصة، وحماية الأفراد من ألوان الضرر والأذى، لأن ما يمس حق الجماعة أخطر بكثير مما يمس الحق الخاص، ولأن ترك العقاب يؤدي إلى إشاعة الفواحش والمنكرات، وانتشار الوباء العام، والإخلال بالأمن والاستقرار الجماعي أو الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي.

فتشريع العقاب ضرورة حتمية لصلاح الفرد والجماعة، وتوفير المناخ العام لسيادة القانون أو النظام، فلا يصح حينئذ انتقاد أي عقاب عام أو خاص، ضماناً للمصلحة والحرية والأمن والسلامة العامة.

هذا فضلاً عن أن الإسلام شرع أيضاً عقوبات تعزيرية مالية، كما رغَّب في العفو والصفح وترك العقاب، كما في عقاب القتل العمد

والخطأ، قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧]، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤]. ومن المعلوم أن أغلب عقوبات القانون الجنائي الوضعي تدخل تحت مصطلح التعازير.

وحينئذ يكون العقاب أحياناً كثيرة رحمة أو مصلحة أو ضرورة منعاً من هزّ كيان المجتمع والأمة والأفراد، لذا قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٩].

وأما محاولة بعض المؤسسات الإنسانية إلغاء عقوبة معينة كعقوبة القصاص أو ما يسميه القانون الوضعي عقوبة الإعدام، ففيها تجرؤ على ارتكاب جريمة القتل، وإهدار للمصلحة العامة، لذا عدلت بعض الدول عن إلغاء هذه العقوبة، لما أدى إليه الإلغاء من خلل واضطراب.

ظاهرة الإسلام الراسخة في التزام مفاهيم ومقتضيات القيم الإنسانية العليا

إن من أعظم مفاخر الإسلام وخوالده الباقية الدائمة احتضانه لثوابت القيم الإنسانية العليا، لأنه دين ذو نزعة عالمية، ويُؤْثر الخير والإحسان لكل الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين.

وتفعيل هذه القيم ضروري جداً سواء أكانت هذه القيم من خصائص نظام الحكم والقضاء في الإسلام، مثل العدل والمساواة والحرية والشورى (أو الديمقراطية الإسلامية)، أم كانت لرعاية مصلحة الجماعة والأفراد، أم لحماية المصلحة الاجتماعية في مجال المال والاقتصاد والسياسة، مثل إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإشاعة عاطفة الحب،

والخير، والإحسان، والرحمة، والسلام العالمي، أم لتوفير متطلبات الحضارة والنهضة والتقدم، وإيثار العمران والبناء، ومقاومة كل أشكال الهدم والفساد والانحراف، بممارسة الرشوة والخيانة وتقويض بنية الأسرة القائمة على فضيلة التعاون والتضامن، والاحترام المتبادل، والعواطف الخيِّرة الكريمة، ففي هذا كله ضمان لمستقبل باسم مشرق للفرد والجماعة.

وقد التزم المسلمون في معاملتهم الغالبة هذه القيم مع أنفسهم ومع غيرهم؛ لأن في التزامها تقديم البراهين والأدلة القاطعة على سمو الإسلام وترفع أتباعه عن شوائب الحقد والبغضاء والتعصب والعنصرية والاستكبار وإشاعة السوء الذي يدمّر الوجود الإنساني.

إن احترام وتفعيل العمل بهذه القيم فيه خير لأصحابه ولغيرهم، وهذا هو الذي أكسب الإسلام سمعة عالية دعت الملايين بقناعة وسلام إلى الدخول فيه، والتزام هديه، وحب نظامه ومبادئه وقواعده، بل إشعاع روحانيته وسموه وترفعه عن الدنايا والسلبيات القاتلة.

لهذا يجدر الحفاظ على هذه القيم والثوابت التي لا يختلف في شأنها أحد من العقلاء، أو الحكماء أو الأسوياء الذين لهم نظرة مستقبلية جديرة بكل تقدير، وتقديم أنموذج يصلح لحل المشكلات العامة والخاصة.

أما العدل فلا يختلف اثنان في أهميته وضرورة التزامه، فهو أساس الملك، سواء مع المسلم أم غير المسلم، وهو ما صرَّح به القرآن في الأمر به في آيات كثيرة منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].

ويلاحظ أن قيمة العدل في الإسلام ليست مقرونة بالحب وحده، كما دعا إليه المسيح عليه السلام فهو أمر قلبي، وإنما اقترن في القرآن

الكريم بظاهرة إيجابية ملموسة وهي الإحسان، وتفادي ضده وهو الظلم، وتطهير الأرض من الفساد والفاحشة ومنكرات الأخلاق والأعمال.

ويصرح القرآن أيضاً ببعض أحوال الالتزام بقيمة العدل الكبرى وهي في أثناء التعامل مع الأعداء والآخرين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٥/٨]. وهذا ما طبقه قضاة الإسلام في مراحل تاريخهم المستمر، ولا شك أن الظلم الذي هو نقيض العدل هو من أشد الجرائم إنكاراً وفحشاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٢] والظلم من الكبائر والظلم ظلمات يوم القيامة وهو مؤذنٌ بخراب العمران.

وأما المساواة في الحقوق والواجبات فهي أرضية نظام الإسلام، من غير تفرقة بين الناس بسبب اللون والجنس والعنصر والعِرْق والمذهب، لأنه قيمة ذاتية في نفسها، لأن الناس إخوة وأبناء أب وأم واحدة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ٤/١]. ومدلول هذه المساواة ذو شُعب ثلاث: مساواة في الإنسانية، ومساواة بين الرجل والمرأة في الحقيقة والواقع بربط المبدأ بأكثر من حكم كربط الحق في الميراث بالنفقة الواجبة على الرجل، ومساواة في بنية الأسرة على أساس من التراحم والتعاون.

ويتوِّج هذه المساواة ضرورة تحقيق ظاهرة التعاون والتعارف بين أبناء البشرية جمعاء، كما دعا إليه القرآن المجيد في آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣] فالتفاضل مرهون بالعمل الصالح والتزام الأخلاق الكريمة.

وأما منار الحرية فهو السائد في معاملة المسلمين مع غيرهم في داخل الأمة وخارجها، حيث نص القرآن، على أهم مظاهر الحرية وهي الحرية الدينية، وغيرُها مثلُها، كالحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

ثم إن الجمال الخَلْقي أو التكويني لا الصناعي المزوَّر يعد رمزاً أو مظهراً من رموز ومظاهر الحضارة، ومقياساً من مقاييس التقدم والسمو والرفعة، في مواجهة مظاهر التخلف والتأخر والهبوط الإنساني.

أما الشورى فهي النمط والمنهج الأمثل في الوصول إلى الأفضل والأصلح والأقوم، لذا أمر الله بها نبيه وصحابته بقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩] ووصف الله تعالى صميم عمل المؤمنين بأنهم متشاورون في أمورهم، وغير مستبدين في مواقفهم، بقوله تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٨].

وأما ملازمة الحق وتجنب الباطل فهي الظاهرة المميزة للإسلام عن غيره من الأديان والأنظمة، فإذا تميزت اليهودية بالانغلاق والعنصرية، وتميزت النصرانية بالتسامح والمحبة، فإن الإسلام تميز بأنه دين الحق الثابت الذي لا يتزحزح ولا يتغير، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٣، الفتح: ٤٨/ ٢٨، الصف: ٦١/ ٩].

وأما دعوة الإسلام إلى الخير فهي من أساسيات هذه الدعوة، وحض القرآن على فعل الخير في آيات وتوجيهات كثيرة، مثل: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٥].

والشر الذي هو ضد الخير من أعظم المنكرات وسوء الأفعال، ومن أمثلته: اكتناز الأموال دون أداء حق الله فيها من الزكاة وغيرها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠].

وأما ملازمة فضيلة الرحمة وترك القسوة والشدة والعنف، فهي جوهر الإسلام، وأصل دعوة الإسلام، قال الله تعالى محدداً رسالة النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٧].

وأما إيثار السلم والدعوة إلى السلام العالمي، فهو في قمة منهاج علاقة المسلمين بغيرهم، فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٨] ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١] فهي دعوة صريحة إلى التزام المسالمة والحرص على إشاعة السلم في كل مكان.

وهكذا نجد أن دعاة الإسلام وعلماءهم ذوو رصيد غني وقوي وسام في تحديد علاقتهم الخارجية مع الدول والشعوب الأخرى، شريطةً ألا يعتدي الآخرون على المسلمين وأعراضهم وكرامتهم وأوطانهم، وإلا تعين اللجوء إلى المقاومة، فهي حق مشروع في كل نظام ديني أو وضعي.

الانطلاق من وسطية الإسلام واعتداله

يتميز الإسلام باعتباره الدين الخاتم والعالمي والخالد بأنه دين الوسطية والسماحة واليسر والاعتدال في كل شأن من شؤونه، وكل حكم أو مبدأ من أحكامه ومبادئه، سواء في النواحي العقدية والروحية والأخلاقية والعملية والعلاقات الداخلية والخارجية، بل قد تتغلب وسطيته في العلاقات الدولية، لأنه دين الرحمة المهداة، ودين الانفتاح والرغبة في الانتشار والذيوع لصالح البشر أنفسهم، لا لمصلحة دولة الإسلام ولا لمطمع دنيوي، أو رغبة في التفوق والاستعلاء والنفوذ الدنيوي، والتسلط على اقتصاديات العالم ونهب ثرواتهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ

بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٦].

ويقول النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»(١).

قال الشاطبي: واعلم أن الحرج مرفوع عن المكلفين لوجهين:

أحدهما: خوف الانقطاع من الطريق، وبغض العبادة، وكراهة التكلف.

والثاني: خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع(٢).

والإسلام ملازم لظاهرة الاقتصاد في الطاعات والاعتدال في القربات(٣)، لأن إطاعة أوامر الله عز وجل ليست مطلوبة لذاتها، لأن الله سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، وإنما لغايات تربوية كبرى، ولإصلاح النفوس، وتهذيب المجتمعات، والرقي بالجماعات.

والوسطية هي محور التكاليف بالنسبة للمسلمين وغيرهم، فلا تشدُّد، ولا عنف، ولا مضايقة ولا تقصير في واجب، ولا إفراط أو غلو في تكليف أو نشاط، أو سلوك(٤)، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

وفي الأثر: «خير الأمور أوسطها»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده من حديثي جابر بن عبد الله وأبي أمامة رضي الله عنهما، والديلمي في الفردوس من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) الموافقات ٢/ ١٣٦ وما بعدها.

(٣) الفروق للقرافي ٢/ ٦٣.

(٤) نظرية الضرورة الشرعية للباحث: ٤٣.

(٥) هو عند ابن جرير الطبري من قول مطرِّف بن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفي، ورواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة (جامع الأصول ١/ ٢٢٣).

والتزاماً بالوسطية والاعتدال يكون أي جنوح عنها منكراً من القول وزوراً ومحظوراً شرعاً، فيحرم التشدد أو المغالاة في الدين بحيث يؤدي ذلك إلى التنطع والإضرار، ويحرم ما يسمى الآن بالإرهاب ضد المدنيين، لأنه قتل بغير حق، أو تشريد، أو هدم، أو تخريب، كما أن فيه ضرراً باقتصاديات الدولة، ولا جدوى فيه، ولا معنى له، وهؤلاء الذين يمارسون العمليات الإرهابية أو التكفيريون الذين يستحلون القتل من غير ذنب ولا جريرة، الإسلام منهم ومن أفعالهم المنكرة براء، والتعاون أو التأثر بإملاءات وخداعات قادتهم جريمة لا تغتفر، وهم مسؤولون عن أفعالهم الوحشية وأعمالهم الخارجة عن أصول الدين، وقيم الإسلام وغيره من الديانات.

فإذا كان الإرهاب ضد عدو محتل، وتعيَّن ذلك سبيلاً للمقاومة لفظائع وجرائم المعتدين، فيكون داخلاً في مظلة (المقاومة المشروعة) للضرورة إذا انحصرت في هذا المجال، أما الذين يخلطون بين الإرهاب السيئ والأعمال الدفاعية، فهم بعيدون عن الحق والمنطق والأصول المشروعة. والمقصود الحقيقي من الإرهاب الذي تحاربه أمريكة هو الإسلام ليكون ذلك مظلة، بدلاً من إعلان الحرب صراحة على المسلمين[1].

والوسطية (أو الاعتدال في الإسلام) تستوعب كل الممارسات المقبولة من المسلمين وغيرهم، وتصلح أن تكون حَكَماً عدلاً ومقبولاً لدى المنصفين.

---

(١) هذا ومما ينبغي العلم به أن قناة (الجزيرة) بثَّت حلقتين في ١٨ و٢٧ رمضان ١٤٢٩هـ الموافق لـ ١٨ و٢٧/٩/٢٠٠٨م فيلماً وثائقياً بعنوان (سبتمبر آخر) أثبتت فيه أن حوادث ١١ سبتمبر/ ٢٠٠١م قد تمت بالاتفاق بين المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، ولكن باستخدام بعض المسلمين، بدليل الطلب من خمسة آلاف يهودي موظف عدم الإتيان لمبنى التجارة العالمي، فلم يحضروا، ووجود المصورين عند حدوث التدمير على المباني المجاورة.

والذين يتجردون من الإنصاف والتوسط والعقلانية، ولا يقبلون إلا بتمرير مصالحهم بالحق أو بالباطل، فهم الذين تسبَّبوا في صنيعة الإرهاب، وإيجاد ما يعرف بالإرهاب المضاد أو العكسي في البلاد العربية والإسلامية.

قال الشاطبي: الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه، ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال، كتكاليف الصلاة والصيام والحج والجهاد، والزكاة، وغير ذلك مما شرع لغير سبب أو لسبب[1].

الإقرار بواقع التعدد أو التنوع العقلي والعقدي والروحي والمذهبي وضرورة احترام الآخر

نحن نعيش في مجتمع متعدد الألوان، متنوع الثقافات، مختلف الأفكار والعقائد والمذاهب، سواء في الجانب السياسي، أو العقلي، أو الفقهي أو العقدي أو الروحي أو اللغوي، فهناك المتصوفة، والموحدة والمبتدعة، والفلاسفة، وأصحاب الأفكار والآراء الكافرة، أو المغرقة في الضلال والانحراف، وهناك الأديان والملل والمذاهب الوثنية، والمجسِّدة والمشبهة والمعطلة، وترى في كتب الملل والنحل للشهرستاني وابن حزم وغيرهما عشرات بل مئات الاتجاهات والمذاهب العقدية ذات المسالك الغريبة والآراء العجيبة، بعضها ينتمي للإسلام، وبعضها بعيد عنه كل البعد، وهناك مئات اللغات واللهجات، وآلاف الأعراق والأجناس في العالم.

---

(١) الموافقات ٢/ ١٦٣.

هذه الظاهرة اقتضتها الحكمة الإلهية، والتي ربما كانت أو وجدت ليتحقق التكامل والتنوع، والتماثل والتعارض، فيعرف الإيمان من الكفر، والحق من الباطل، والاستقامة من الزيغ، بجانب ما نشاهده من جمال أو قبح، ونور وظلمة، وتناقض أو تعارض وانسجام وتناسق، وحق وباطل، واستقامة وضلال، وعدل وظلم... إلخ.

والله سبحانه قادر على أن يكون الناس في وحدة تامة، دون أي اختلاف، كما أخبر الحق سبحانه في كتابه المجيد بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٣].

وفي آية أخرى مشابهة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩].

وأيضاً في آية موضحة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود: ١١/ ١١٨-١١٩].

ونحن في خضم هذا التنوع لابد من أن يتعايش علماء الإسلام، ويبذلوا أقصى جهدهم لغرس نور الهداية الإلهية، وتصحيح الواقع المرّ، وبيان أصول الإيمان والإسلام، وتحديد مدى الاقتراب والابتعاد منه، ومعرفة فضل الإسلام في التعالي عن مظاهر الاختلاف، وتباين الناس في طبائعهم وأفكارهم وانتماءاتهم، ليظل الولاء والطواعية للتوجيه الإلهي، ويكون مصير المتخلفين إلى ربهم، سواء في عالم الدنيا، أم في عالم الآخرة، لمساءلة الجميع عن أفعالهم وأعمالهم الخيرة والسيئة والتمييز بين المسلمين والمجرمين، وإنصاف الخلائق البشرية.

وعلى دعاة الإسلام وأصحاب الحوار، سواء بين الأديان أو الحضارات أن يلتزموا أدب الاختلاف، ومباني الصحة والغلط، والصواب

والخطأ، ومآل أهل الحق، ومصير أهل الباطل، وهذا يتطلب احترام الرأي الآخر، لأن مهمة الداعية أو العالم هو البيان فقط، كما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٩]، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٤]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢٢-٢٣].

والاحترام لآراء الآخرين دون شطط ولا عصبية، ولا تطاول، ولا ازدراء، مدعاة للتأمل في طريق الصواب، والانصياع لنداء الحق.

وإذا كان من طبيعة الإنسان أن يتضايق من مواقف الآخرين المتصلبة، دون توصل إلى ما يحقق لهم النجاة والسلامة والأمن النفسي والإيمان الصحيح، فليكن هادئ النفس، مفوِّضاً الأمر إلى الله تعالى وطالباً الهداية للمخالفين.

ومن أجمل ما علَّمنا القرآن إياه في آخر نقطة من الحوار الهادئ، واحترام الرأي الآخر قول الله تعالى في توجيه نبيه محمد ﷺ حين اليأس من مواقف المشركين فيقول لهم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٤].

وكذلك الآية الواردة على سبيل التهديد والوعيد لا التخيير والحرية، بعد الحوار والبيان، هي: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩].

ومع كل هذا، فلا يأس منا، ولا تراجع عن المبدأ، ولا تشكك في معرفة الهدى من الضلال، والحق من الباطل فنحن - كما هو شأن القرآن وسيرة النبي المصطفى ﷺ - أمة البيان والحوار، مع الصبر في أثناء الممارسة، وتكرار المحاولة بين الفينة والأخرى، لأن الصمود أمام

الخصوم قد يحقق في النهاية الظفر أو النصر أو الوصول إلى الهدف الأسمى، والغاية الكريمة، ولو بكسب فئة وإعراض آخرين.

إن استثمار هذه التوجيهات يعدُّ في صالح العالِم المسلم أو الداعية المسلم، في نهاية المطاف، لأن أمارات الحق، وإشراقة النفس بنور الإيمان، وانشراح الصدر، قد تلوح أو تظهر ولو بعد حين، والمرجع في الخاتمة للإرادة الإلهية، كما قال الله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٢].

تشييد مركز الدعوة والدعاة، أو تفعيل المركز الدعوي الدائم في الأزهر للتواصل مع الدعاة وعلماء الإسلام في العالم لضبط طرق الدعوة وتحديد غاياتها القريبة والبعيدة

ما يزال الأزهر الشريف في الماضي والحاضر منذ أكثر من ألف عام منارة العالم الإسلامي وطليعته، في تلقي العلوم الإسلامية، وإبراز معالم الثقافة والفكر الإسلامي، وتربية الأجيال، وتخريج عشرات الآلاف من العلماء، فهو بحق أقدم وأنصع وأفضل جامعة إسلامية، وهو يسهم إسهاماً واضحاً في نشر الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم، عن طريق بعثاته العلمية، وإيفاد الموفدين لتلقي العلوم الحديثة في أوربة وأمريكة وإفريقية.

والذي يهمنا في وقتنا المعاصر التصدي لتحديات العالم الغربي وغزو الثقافة الغربية، من إثارة الشبهات وزرع الشكوك في معطيات الإسلام سواء في العقيدة والسياسة والأخلاق والاقتصاد والاجتماع، وهي ما تعالجه العلوم الفلسفية في العصر الحاضر، وسواء في مصادر التشريع والفكر الإسلامي دون استثناء واحد منها، حتى محاولة النيل من القرآن الكريم وتاريخه ومشتملاته والسنة والسيرة النبوية وتاريخ المسلمين بدءاً

من الخلافة الراشدة، ثم الأموية والعباسية والعثمانية، ثم مآسي القرن العشرين، وما خلَّفه الاستعمار القديم والحديث من آثار وخيمة وأفكار هدامة.

لذا كان تجديد صرح مركز الدعوة والدعاة في الأزهر ضرورياً جداً، وأمراً في غاية الأهمية والحيوية، على نحو مشابه للمؤسسات والمراكز العلمية في الغرب، بتخصيص فروع تشمل دراسة كل مخططات العالم الغربي وتفنيد مهازل كل ما يصدر من كتب مسيئة للإسلام، وصحف مغرضة، وترويج دسائس المستشرقين والحاقدين.

ثم لا بد من إيفاد بعثات جديدة لكل بلاد أوربة وأمريكة الشمالية والجنوبية وكذلك بلاد الشرق أيضاً، وتزويدهم برسائل ومنشورات باللغات الأجنبية لبيان كل ما قدمه الإسلام للحضارة المعاصرة من ثقافات وعلوم، وإسهامات واضحة المعالم، والرد على الشبهات والمعلومات المشوهة عن الإسلام، ومحاولة تصحيح ما يدرسونه في مدارسهم ومعاهدهم من ثقافة حاقدة أو مبتورة أو مغلوطة.

كما لا بد من إعداد الدعاة إعداداً قوياً وناضجاً، وتواصلهم مع الأزهر ورصد كل المشكلات، وبيان طرق حلها وتبديدها.

ويتم التواصل مع (مركز الدعوة والدعاة) في الأزهر بإصدار التوجيهات المناسبة كل أربعة أشهر، ومطالبة الدعاة بتقديم تقارير دورية كل ستة أشهر، وذلك من أجل إغناء حركة المد الدعوي والتصحيح الإسلامي، وتبادل الآراء وتقديم المشورات، واقتراح الحلول المجدية، وبيان تجديد وتطوير وسائل الدعوة بما يتفق مع مقتضيات المعاصرة، مع الحفاظ على الأصالة، وبيان أصول فهم القرآن والسنة والسيرة النبوية، بما يحقق للثقافة الإسلامية والتوجيه الإسلامي من بيان الإيجابيات والآثار الواضحة المبدأ والغاية، وكيفية علاج وتصحيح أخطاء غير

المسلمين، وفي طليعتها قضية الإرهاب التي ألصقت بالإسلام زوراً وبهتاناً وهو منها بريء، كما يبرأ من كل الأنشطة المسيئة للإسلام بصنع فئة زائغة، وشباب متهورين، ومخدوعين من قادتهم الذين يُضلونهم بغير علم، ويزرعون في عقولهم أفكاراً ضالة أو شاذة أو بعيدة عن الحقيقة الإسلامية الناصعة. إن العمل الجاد والضروري في وقتنا الحاضر هو تصحيح النظرة إلى الإسلام ومبادئه وغاياته، والتركيز على وحدة الإسلام علماً وعملاً، وأنه جوهر نقي لا مجال فيه للقدح أو الذم، أو الفرقة أو التجزئة، وأن أفكار الجانحين والشذّاذ غريبة عن صفحة الإسلام النقية ومبادئه وأحكامه القطعية.

والتواصل الدائم مع قيادة الأزهر وعلمائه الأثبات، والمذاكرة في كيفية بناء الحياة والإنسان والعالم، وتجديد آفاق العلاقات الخارجية أو الدولية، على نحو مرن وشفّاف، ووسطية واعتدال، وتعاون وتعارف، وتعامل نقي قائم على منهج الحق والعدل والمساواة، وأن الإسلام عقيدة ذات مصدر إلهي، وشريعة ربانية محكمة، وأنه واحد في بنيته، لا يختلف بين القديم والحديث ولا بين بلاد الإسلام كلها.